بهاء عبد المجيد

# جبل الزينة



جبـــل الزينـــة

# جبـــل الزينـــة

«روايـــة»

بهاء عبد المجيد

# جبـــل الزينـــة


تأليــــــف: بهاء عبد المجيد

طبعــة أولــى: دار ميريت ٢٠٠٥

طبعة ثانيــة: الدار للنشر ٢٠٠٧

طبعة ثالثة: خاصة ٢٠٠٨

تصميم غلاف: عمرو الكفراوي

عمدة القرية لم يكن يهتم برعيته فى الفترة الأخيرة، فقد تقدم فى السن ومرض بعد أن كان معافى ومقاتلاً شجاعاً، حارب كثيراً، وهزم عدوه وأحكم لجامه، فلا يستطيع الاقتراب منه ولا من أرضه، وعلى الرغم من أن ما يفصلهما فقط سور من العشب. فإنه فى مأمن من غدره.. ليس لأن عدوه ضعيف ولا يستطيع إعادة الكرة، ولكن لأن عدوه مشغول بعدو آخر، وأما زوجته فكانت تحب الحكايات والأساطير الغريبة، وتجزل العطاء من أجل أن تسمع حكاية أو خرافة حتى أنها صنعت ديواناً خاصاً بالحكايات لكي تحفظها من الضياع أو النسيان وهناك من يقول أن الحكاية هي العزاء الوحيد لها في هذه الدنيا الحزينة التى لم يعد بها افراح وآخرون يقولون إنها من سلالة تحب الحكاية، فعائلتها أول من اخترعت الكتابة وأهلها هم الذين جمعوا ليالي "ألف ليلة وليلة "، وشهرزاد راوية الليالي قريبة لها قرابة الدم.

عندما سمعت بحكاية الجثة تملكتها رغبة عارمة فى أن تعرف أصل هذا الرجل رغم أن زوجها لم يعرها أي اهتمام حتى لا يجعل من وجود

هذا الغريب أسطورة تلفت القرى الأخرى إلى قريته وسياسته فى معاملة رعيته، فقد كان من مبادئه أن يترك الناس تتصرف كما تشاء وأن يترك لهم الحرية فى أن يتفوهوا بآرائهم حول سياسته أو حتى شخصيته لأن هذا بمثابة تنفيس لهم فيقل حنقهم عليه، وبالتالي يفعل هو أيضاً ما يشاء.

فعندما علم بالحكاية لم يهتم، وظل فى ديوانه يتابع من بعد، فى حين أن زوجته كانت شغوفة وتسأل كل وقت ماذا يقول الناس عن هذه الجثة؟ وهل تعرف عليها أحد أم لا؟



صوت السواقي التي تنتحب، وتنعى المأساة مازالت تسمع وتردد مرثيتها بشجن وألم مع كل دورة تدورها. صوتها المشروخ المتذبذب يعيد للطبيعة وللبشرية نفس القصة، وكأنَّها حدثت أمس فقط. السواقي التي ربما وجدت قبل سقوط آدم وحواء وتحركها قوةُ وماء الأرض منذ

أن ذاب الجليد في التكوين الأول للكون ما زالت تتحرك والشمس والقمر يطلاّن بمحبة على هذه الدائرة التي تشبههما كثيراً ، وليس بعيداً عن هذه السواقي حدثت هذه الحادثة. حادثةُ وجود جسد هذا الشخص.

كانت قد تسحَّبت الشمس بعيداً وموهت غيابها ببعض الأشعة والضياء البارد على صفحة مياه البحيرة ، وونست صفحةَ المياه السحبُ القليلة المنتشرة في السماء والتي تعطي إحساساً بأنها زهور النرجس، ولبست سحباً حقيقية تعانق السماوات، وتنظر إلى الأرض من بعيد جداً بل وهي أيضاً شُعُباً مرجانيَّة رمادية اللُّون شفافةً وانسيابيةً، تتحرك بهدوء مع تحرك الموج الخفيف.

والذين وجدوه على شاطئ بحيرة قارون بالفيوم قالوا إنهم رأوه منذ بضعة أيام يمشي وحيداً على الشاطئ بقدمين متورمتين تنزفان دماء، ولا يحمل من زاد الدنيا إلا عصا في يده،ويحملق في الجبل البعيد، وإن أرادوا أن يحادثوه أو يبيعوا له شيئاً لم يكن يرد عليهم إلا بابتسامةٍ رقيقةٍ

تخترق نفوسهم ثم يتحوَّل عنهم فجأةً ناحية الموج، ثم يصمت لفترة طويلة.

قال أحدُ أهالي قريةِ " شكشوك " أنه رآه في إحدى المقاهي الصغيرة حتى إنه استغرب وجود هذا الكائن حيث أدهشه بزيه، وأيضاً وسامته وقوة بنيانه، إلا من بعض الإرهاق الذي يظهر في شكل هالات زرقاء تحت عينيه.

امرأة أخرى ترتدي فستاناً أسود بكرمشات في الوسط، وتحمل في يديها مخيطاً توصل به الشباك الممزقة قالت إنه سألها ذات مرة عن رغبته في شراء بعض أسماك موسى، ولكنها عندما قالت ليست لديها نار أو أدوات لشي السمك رحل حزيناً.

ومع إنه ترك النقود فإنه لم يأخذ أسماكا معه، وقال اطعميه لأولادك، وإن لم يكن لديكِ أولاد فأعطيه للفقراء، وإن لم يكن هناك

فقراء في هذه القرية فملّحيه، وإن لم يكن لديكِ ملح فألقيه في البحيرة ثانية فسيعود لك بالخير مضاعفاً.

قالت المرأة والدموع تجرى على خديها إنها رأت فيه شباب ابنها الذي رحل ولم يعد، ثم جاءت بعد برهة ووضعت الأسماك الحية وبعض النقود عند رأسه وقالت: "كان فأل خيرٍ لقد عاد الولد ورجعت الفرحة"، ثم بكت هي وابنها الذي تأثر بدموعها.

ظهر بين الجموع رجل فارع الطول ممتلئ الجسد ذو بشرة سمراء تركت الشمس حروقاً على جبهته ووجنتيه "يدعى زين"، وقال بلهجته الفيومية: " إنه لمحه يخرج من الحقل المجاور للبحيرة وقت الظهيرة وكان يبدو غريباً وليس مثل الأجانب الذين يراهم كل يوم ثم أضاف عندما اقتربت منه سلّم عليّ برقة وخجلت أن أمد له يدى فقد كانت متسخة بالطين، ولكنه ضغط على يديّ وسألني عن بيت بعيد ووصفه لي فقلت " هذا بيت سيد الغجر ".

فسرح طويلاً وتصبب عرقه ثم سأل بشرود: " هل يوجد سحرة هنا؟:

" فاجبت بدون تردد " لقد ماتوا جميعاً قبيل وفاة سيدنا موسى، قتلهم فرعون "يوم الزينة" وما تزال سيقانهم وأذرعهم معلقة على جذوع الأشجار والنخيل على الجبل البعيد، وأصوات عويلهم يتردد صداها فى الفلاة. ثم تذكرت فجأة وقلت: " توجد هناك واحدة تعيش في منطقة جبل الزينة، ستجدها هناك ولكن أحذر منها فهي بالنهار عجوز متهالكة، ستخيفك حتماً، اما لو صبرت حتى المساء ستجلسك هناك بجوار البحيرة، وتستأذنك لتعود فتاة شابة جميلة، وستدفئك بشعرها البني المسترسل حتى نعليها، وسترقص لك، كما ترقص حوريات الجنة وتغني لك بصوتها الرَّخيم، ولكني لا أعرف ماذا ستفعل بك بعد ذلك، هكذا قال أجدادي، ولكن لم أرها أبداً ".

فابتسم هذا الغريب، واستبشر، وأعطاني حِلية ذهبية ثم جرى نحو جمَّال يمتطي ناقة، وسأله أن ينقله معه حتى بيت الغجر، ولكن الجمَّال رفض وقال اذهب وحدك، وكفانا شرها وشر الأغراب، ولكن ما إن قال

ذلك حتى مالت الناقة للغريب وبركت ورفضت أن تتحرك، ثم اتجهت بفكها نحو الجمَّال وكادت أن تقضم قدميه فضربَها الجمَّال ضرباً مبرحاً وذكرته بزوجته التي عشقت خادمها، وسالت من أجله دماؤها وعندما رأي الغريب الدماء هلع وهرب، وسقط مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، ولم أره إلا وأنتم ملفوفون حو له الآن ثم اتجه ناحية الشمس وتلا صلاته.



امرأة العمدة ضعيفة البنية، ولكنها مليحة الملامح هادئة الصوت في عيونها حنان الأمهات التي وضعن حديثا وكانت تتعامل مع العمدة على أنه طفل كبير يجب الاقتراب منه بحرص فمنذ أن تزوجته وحياتها لم تتغير إلا من لحظات غيرة ورغبة في أن تبقى دائما الأولى، لا تنكر أنها أحبته بالرغم من اختلاف عائلتها عن عائلته فهى من عائلة عريقة أم هو من أبسطها، وفق ذلك لم يحب القراءة يوما ولا الحواديت بل القنص والصيد.

كان يكسرها دائما بقوته وعنفوانه وينهرها عندما تهتم بالفلاحين والصيادين أهل القرية وكان دائما دخوله بها فى الفراش عنيفا وبالرغم من ذلك كانت لا تطيق بعده فهو رجلها وأبو ولديها حسام ونضال اللذان أصبح جسداهما تماما مثل أبيهما وكانت تعمل دائما لتأهيلهما للحكم والعمودية.

عندما سمع الزوج بشغفها بحكاية الجثة، ثار وقال لا يوجد أنبياء في قريتنا ويكفي أنني الحاكم هنا وعندما سمع الأهالي هذا الراي وضعوا ألسنتهم في أفواههم حتى كاد الصمت أن يصبح جبل مقطم آخر.

قال اخفوا هذا الجثة بعيدا أو قولوا إنها مومياء فرعون بعد أن غرق في اليم وجرفه التيار إلى بحر يوسف ثم إلى شاطيء البحيرة. استغرب الأهالى قول الحاكم وتساءلوا أليس الحاكم هو خليفة الله في أرضه، ويحكم بشرعه، ويؤمن برسله وساورهم الشك حول كفر قائدهم،

ولكنهم لم يصرحوا بشيء فقط قل ذهابهم للمساجد، ولم ينظروا للسماء كثيرا، وكثرت جلسات اللهو واحتفالات المجون والغناء حتى الصباح.

زوجة الحاكم قالت البشر هم الحكاية ولن يسكت البشر لأجل زوجي، وسمحت بمزيد من القصص حول هذا الميت وقالت بدون الأساطير سيموت الخيال، وتصبح الدنيا خاوية من أى معنى. فأخذت تسمع الحكايات وتتمنى أن ترى هذه الجثة رأى العين، ولكنها لم يكن لها خيار إلا أن تسمع فقط ما يتنقله البشر عن الرجل الغريب.



استمع الحاضرون لما قاله "زين" وتذكروه هو ووالده الذى تنكر له منذ ميلاده وقال إنه ليس ابنه، عندما وجده ملقي فى الحظيرة ويلعقه ذكر الجمل وترقد والدته بجانبه يملؤها الإعياء وتنظر لذكر الجمل بإعجاب وفرحة..لم يعلق الحاضرون على ما قاله فهم لم يتعودوا على

مناقشة الحكاية بل على الاندهاش والتصديق لما يقال لهم بدون محاولة الرغبة فى عدم التصديق أو حتى الانصراف عنها.

ولم يطلب أهل القرية النجدة، ولم يلم الصيادون شباكهم ولم يعرضوا بضاعتهم لسائحى الأبروج، وظلوا يجلسون بجوار الجثة، وهم يهمهمون بتعويذات حفظتها رمال الصحراء وخيامها منذ زمنٍ بعيد يرجع لسقوط آدم وضياعه في الأرض بحثاً عن ملاذ وخلاص.

بعض الحاضرين أخذوا ينظرون للموج المتزايد وانكساره على صخور ورمال الشاطئ والقمر الذي التفت حوله النجوم التي ما لبثت أن رسمت بقداسة شكل وملامح الجثة الملقاة أمامهم ثم صرخوا جميعاً، فانبعث منهم طفل يرتل القرآن والكتاب المقدس، وقرأ سورتى الجن والنَّجم إذا هوى، ثم ذكر حكاية عازرا الذي قام من موته بكلمات السيد المسيح قال البعض بعد أن تشاوروا: ندفنه تحت الرمال، أو نلقيه في مياه البحيرة فهناك الكثير في أعماقها من أمثاله، أمَّا البعض الآخر فقال:

ننتظر حتى الصباح واتفقوا جميعاً على أنَّ إكرام الميت دفنه، ذكروا قصة قابيل وهابيل والغراب الذي حفر القبر ولكنهم لم تواتهم شجاعة دفن هذا الغريب وكيف يلقونه فى رحم الأرض مرة ثانية بعد أن لفظته؟.

طوال الليل لم ينم الحاضرون وازدادت الأمواج ارتفاعاً وعلا صفير الريح، وصرخت الأرواح النائمة تحت المياه ووضع الناس أصابعهم في آذانهم، وقالوا: " اللعنة" وصراخ البحيرة يتصاعد تدريجياً ثم ما يلبث أن يهبط ثم يعلو ثانية كأن هناك وجوهاً تشوى أو بطوناً تغلى بها شراب الحميم أو كأن هناك أقداماً تدوس على شوك، ثم خبطت الريح في السحب، ولم ينزل المطر واختنق الجو بالرطوبة.

ثم طلعت الشمس بقرصها البرتقالى وحرارتها الباردة على الجثة التي أخذت لون المياه الخضراء المائلة للزرقة وبانت الجبال وراءها صفراء

ضبابية، ولا تقطع الرؤية غير بعض القوارب الصغيرة التي تتأرجح بتوتر على المياه.

من وراء الشاطئ خرج النسوة من بيوتهن يحملن سلال الأسماك وينادين بغنج ودلال على بضاعتهن، ومرق الأطفال يلهون في الطرقات، والعجائز سرحن في الغد، ووضعن أيديهن تحت خدودهن وجلسن أمام أبوابهن ينتظرن الملائكة التي ستقبضهن يتوسلن لهم أن يتريثوا فى مهمتهم فهناك ذكريات يجب أن تحكى للصغار وحواديت يجب أن يسلمنها لأصحابها من الجيل القادم وأحلام يرغبن فى تفسيرها برؤية العين: كالخبز المنثور على درجات السلم والتمر الذى يملأ السلاسل والملائكة المجنحة التى تقفز من الشرفات ومعها أطفال صغار، أمَّا البهائم فهرولت تجاه الحقول كعادتها تأكل الكلأ وتشرب الماء وما إن سمعن بخبر الجثة حتى زهق الجميع من عاداتهن واتجهن نحو الشاطئ يتساءلن عن هذا الغريب.

من بين هؤلاء النسوة قالت واحدة إنه قرع باب منزلها.. لم تدرِ إن كان وقت الفجر أو السحر ونهضت متكاسلة من تحت جسد زوجها الغارق في ملحه لتفتح، وعندما نظرت إلى عينيه استبشرت ثم دخلت على زوجها وقالت له جاءنا ملك، وعندما هم لصفعها قالت " ضيف " ثم سألنا عشاء ومبيتاً حتى الصباح فقط، لأنه يخاف البحيرة ويخاف الأصوات ، فأعطاه زوجي خبزاً طازجاً كنت قد خبزته لتوي، وبعض الملح، ثم استرسلت، كنت قد حَلمت بسيدنا يوسف يشاركنا مائدتنا، وعندما حكيت له نهرني زوجي وقال باستهزاء "لا تصلّي وأنت غير طاهرة تحلمين بيوسف أيضاً.. والله حرام"، وخمن أنني سأخونه يوماً ما مع ابن اخيه الذي بلغ الحُلُم حديثاً وعندما مد لنا هذا الغريب الراقد أمامكم يده لم نطُلها وكان بها نقود وعندما شاهد زوجي ذلك أغلق الباب وأمرني الا افتحه للملائكة، وحلف بأيمانه أنه رأي جناحين صغيرين منكمشين وراء ظهر هذا الغريب ثم ولولت المرأة، ووضعت كيلة من القمح وقالت: "ادفنوها معه فستمنع تحلله" ثم هرولت بعيداً جداً.

تعاطف بعض المستمعين بحكاية هذه المرأة مع هذا الغريب وقالوا هواجس الوحدة، فهى لم تلد حتى الآن وظهرت أسنانها الخضراء كما يقولون ولكن الله قادر على كل شىء فهذه السيدة سارة زوجة أبى الأنبياء خير مثال، ولكن أن تحلم بيوسف فهذا وارد أيضاً فقد رآها أهالى القرية توشوش مياه ترعة يوسف التى تخترق الواحة الكبيرة، وترمى بسبع سنيلات خضر كل يوم جمعة لتحصل على البركة، فهى تريد أن تنجب وأن تترك وراءها ذرية، وأن تثمر بيضتها بشاب يزيل عنها وصمة العقم، وعندما تموت يحمل نعشها مع أصدقائه من الرجال ويصلى عليها أيضاً.

❖ ❖ ❖

فى الظهيرة اتّسع قرص الشمس حتى كاد يملأ السماء، ونامت الريح، وسكنت وذابت الجبال البعيدة فى الأفق وأخذت البحيرة لون الصحراء الممتدة حتى حدود المغرب وليبيا، وبرغم الحرارة الشديدة، غرد

الكروان وردد: الملك لك، يا صاحب الملك، تشهد الناس بالإله الواحد، واقترب طفل وملأ دورقاً من مياه البحيرة واتجه نحو الجثة، وأخذ يبلل براحته جبهة وشفاه الراقد بالماء، ونطق الطفل بالحكمة، وقال "الماء المالح سيمنع تعفُن الجسد". ثم سكت ورغم أن أهالي القرية تأكدوا تماماً أن هذا الجسد مقدّس وحجّتهم أنه لم تنبعث منه رائحة الموتى وسجى تماماً وكأنه نائم. الغريب أنهم أيضاً قد احتشدوا جميعاً وتركوا أشغالهم البسيطة ونظرت امرأة منهم وتاهت في غابة الشعر النامية في صدره وجرت ناحيته تقبله ومع ذلك لم يشمئز الناس، وتساءلوا: "هل يُخشى من الموتى ؟ وهل يُخشى من الملائكة ؟".

هي أنثى حتى هذه اللحظة رغم أنها قد تجاوزت الخمسين ثم رفعت وجهها وانسدل شالها الأسود وبانت رقبتها الغزالية وانفرد سروالها الأسود، ورفعت يدها تجاهه وهي جالسة على ركبتيها، وقالت: "دعوه لي احتفظ به فأنا وحيدة في هذه الدنيا. لقد مربى في خيمتي الحمراء كنت أعاشر رجال الأرض بحثاً عن رجل يجعلنى أفهم من أنا ؟ ولماذا

نحن فى الأرض؟، وما إن دخل عليَّ هذه الخيمة، حتى عدت عذراء طاهرة نقية، وعندما وضع يده على صدري وقال: "اهدئي أيتها الروح المعذبة المتمردة ثم أخذ الحجارة الملقاة حول الخباء وبنى بها بيتاً لى، وقال البيوت القوية مثل الإيمان القوي لا تهزه الشهوات ".

ثم فجأة وعلي غير توقع أخذت تجذبه وتنهشه من جسده باشتهاء فحدث هرج ومرج والتفَّ الناس حول الجسد يحمونه منها ومن أظافرها ورغبتها المكبوتة منذ سنين.. ومن الإجهاد سقطت مغشياً عليها.

همَّ بعض الرجال بمحاولة منعها ولكنهم خافوا لسانها وتهورها، فمن منهم لم يساومها على جسدها حتى ولو بالنظرة؟! بالنهار يبصقون عليها ويمنعون نساءهم من الحديث إليها ومعاملتها حتى إنهم طردوها خارج القرية وعندما ينزل المساء يلبسهم الشبق ويهرولون تجاه منزلها يطلبون منها أن تخلع عنهم وطأة الميل وتصل بهم إلى الاكتمال وتمام المتعة. وأصبح جسدها ميناء يقصده كل محتاج وراغب فى مرفأ هادئ

ومريح، أما هى فكانت كل رجل يخلق لها خيبات متجددة وطريقاً لا عودة منه.

❖ ❖ ❖

امرأة العمدة راودتها الأحلام والكوابيس طوال الليل عندما سمعت الحكايات المتعددة عن الجسد الراقد بعيداً، وتساءلت أهى بشري للعنة أم النعمة؟ وأخذت ترسل للفلاحات والعرافات المشهورات بتأويل الأحلام حيث حلمت أن هناك شوكة صبار تدخل بعمق في عمودها الفقري، فتنزل دماء بلون اللبن فتغرق مخدعها وترتفع حتى إسقف منزلها.

ويوماً حلمت أنها تأكل حوتاً ميتاً يخرج منه جنين صغير.

منهن من قالت إن الموت قريب من دارها، ومنهن من قالت إن الخلود هو المصير ففي الموت الحياة والأزلية.

في الليلة الأخرى أصرت أن تضاجع العمدة حتى وإن لم يرغب في ذلك، وهمست له بأنها تنسي العالم باكتمالها معه، وأن هذه هي "اللحظة النور" في حياتها فلا يجعل حياتها مظلمة بإهماله لها.



جسد الرجل يرقد ساكناً مبتسماً برغم ما يحدث بريئاً كأنه مولود اليوم فقط، وفيه من الجمال والحيوية ما عوضهم عن مشقة النظر إليه.. غربت الشمس واقتربت أكثر من القمر، واجتمعا في سماء واحدة، ثم ما لبث أن بزغ القمر فاكتمل وأمن البقعة كلها، ونشر ضوءه الفضي على خلفيته، وعلي صفحة مياه البحيرة، فبدت كأنها لؤلؤة تلمع وتخطف الأبصار، وركز القمر ضوءه على الجسد فبدا كأنه نجمة باهرة السطوع، وعندما لمح أهل القرية القمر زال عنهم التعب والألم والخوف، واشتد عود الرجال وجرت العافية في أصلابهم وأخذوا يداعبون نساءهم فانتشت النساء وطاقت الأجساد للانسجام ومطارحة

الغـرام فأخـذ الرجـال نسـاءهم وأسـرعوا تجـاه بيـوتهم منتهـزين الفرصـة المواتية لبث طاقـة الحياة مـرة ثانيـة في نسـائهم بعـد مـا هجـرتهم لفـترات طويلـة. كانـت النسـاء جـاهزات لفعـل العشـق إلا واحـدة رفضـت،وقالت: "المـوتى هـم البـاقون، أمّـا الأحيـاء فزائلـون، ومكثـت بجـوار الجثـة تنـوّح بعدودة، تنعى بها الغائبين.

يا بلاد الغربة فين الطريــق

سافروا الأخوات ومعاهم الحبيب

يا غربة يا بعيدة فين أراضيك

أمشى أيام و أركب سنين

ولو قابلت الموت يكفينــي

أني وصلت للحبيــب.

واحد من الرجال شعر بانجذاب نحو هذه المرأة التي تتكلم بصراحة زائدة عن علاقتها بالجثة، حتى أنها تفتضح نفسها أمام قومها، فمر أمامها بجسده المتناسق وطوله الفارع، محاولاً أن يذكرها بالأيام الخوالي ولكنها لم تلتفت إليه، ورجع إلى مكانه مطأطئ الرأس واضعاً يديه في جيب سرواله.

فجأة ظهرت امرأة ترتدي ثوباً أرجوانياً وتضع "كردانا" من الذهب على صدرها المرمري وتغطي وجهها باليشمك وقالت للرجال المجتمعين بدون خجل: إن هذا الرجل الراقد أمامكم قد زارني في ليلة من الليالي وجلس بجوار العش الذي أسكن فيه على "عين السلين " وإنني أحببته عندما نظرت إلى عينيه التي كانت بلون العسل المصفى، ثم مالت عليه وحاولت أن تفتح جفونه ولكن بعض الرجال منعوها، فقالت بعدما حملقت فيه وجدت بشرته قد تغيرت إلى لون الورد البري ، ثم استطردت قائلةً.. أحببت أيضاً كفيه بأصابعهما الكبيرة التي كانت تشبه أصابع التماثيل القريبة من سد اللاهون، عندما لمستهم سرى الدفء في كل

جسدي وتلبستني طاقة غريبة جعلتني أميل على شفتيه وأقبلهما كانتا مكتنزتين السفلي أسمك من العليا قليلاً وأنا شربت من رضابها، ولم أرتو وكان بطعم ماء زمزم، وإنه كان مثل الملائكة لا يثار ولكنه يصل بالواحدة إلى قمة الذروة والنشوة، وإنه رفض أن أتمادى معه، وتركني أتقلب بجوار العشة في ليلة مقمرة مثل تلك، وأحملق في النجوم، وأشتهي النخيل المنتصب تجاه السماء ".

قالت قبل أن يتركني مشينا طويلاً وتحدثت كثيراً وكان صامتاً وينظر دائماً إلى عيني ويشرد وكأن به أذى، وقال: "أخاف الحقول ليلاً"، ثم قال: "الشجر سكن الجن فدعينا نذهب إلى البحيرة" ومع ذلك تونستُ به وفرحت بوجوده معي كأنه وليدي الجديد، وشفيت من سُقمي وانفردت قامتي بعد الهُزال.

وقالت: " كان يحمل معه وريقات قديمة تظهر لطعات العثة عَلى نسيجها"، عندما سألته ما هي قال: خارطة كل البلاد التي زارها

واستغربت كيف تختصر المسافات والبلدان الواسعة وأرض الله الشاسعة في شكل خطوط ونقط وألوان، وأشار إلى الأخضر في وسط الأصفر وقال هذه هي الواحة، أرضنا أمُّ القرى.

ثم سرحت ببصرها تجاه البحيرة وقالت كان يريد أن يذهب هناك عند خيمة الغجرية ولكنه كان يخافها ولا يعرف طريقها وحاولت أن أجعله ينساها وفشلت، وها هو ذا رحل وتركنا، وهذا هو مصيره: جثه راقدة على رمال مبلّلة وباردة، ثم ما لبثت أن ظللت عليه السحب واقتربت السماء قليلاً وانخفضت إضاءة النجوم وكأنها تهدهده لينام.

قالت وهي تُقبل رأسه: "كان حنوناً ورقيقاً جداً"، ثم جرت الدموع ساخنة، وبللت صدر فستانها ومسحت دموعها بكفيها واعتدلت في جلستها، وقالت: "جلب لي الونس بعد الوَحدَة الطويلة منذ أن هجرني زوجي لينهي الحرب في البلاد البعيدة التي عرج منها سيدنا "محمد" وعندما احتضنته بقوة اكتفى بالعناق وقال: "الأرض هي الشرف

وكيف نضاجع النساء وأرضنا تحت أقدام رجال غيرنا" ثم قالت: زوجي لم يرجع ولم ترجع الأرض ! أيضاً وسكنها الغرباء من كل مكان.

❖ ❖ ❖

نقنقت ضفدعة خضراء باردة في صمت الفضاء فتشاءم الحاضرون، ومشت بعض القشريات بجوار الجثة ثم ما لبثت أن ابتعدت بسرعة نحو مساكنها في الصخور. كانت السيارات تمرُّ بسرعة مرسلة ريحا خفيفة تنعش الحاضرين بعض الوقت ثم يختفي صداها في الفراغ المحيط.

قام أحد البدو بجمع بعض الأخشاب الجافة وكومها ثم أشعل عدداً من الثقاب ثم بدأ ينفخ في النار التي اشتعلت بسرعة وتطاير بعض اللهب والرماد تجاه الجثة فأسرع أحد الحاضرين وأخذ يزيل السواد والرماد عن الوجه، ولكنه تساءل: مادين هذا الشخص ؟ ودون أن ينتظر إجابة قام وأحضر بعض الرماد المتبقي من اللهب المحترق ورسم صليباً على جبهة الميت.

وما ان انتهي حتى نهض شخصٌ آخر ولكمه في قلبه، وقال "قبطي" تحب التبشير حتى مماتك حتى لو وافقت ان تبشر فأنت لست أهلاً لذلك، ألم يطردوك بسبب أعمال السحر التي تقوم بها في الخفاء، فبُهت الرجل الذي من الواضح إنه كان قساً وغوى، وتكور هناك بعيداً، ثم قال الرجل الذي تشاجر معه إنه لن يموت إلا على دين محمد، وسيصلي عليه في المسجد، ويغسل شرعياً، ثم قال بحنق"هو لنا وليس لكم".

ثم أمطرت السماء مطراً غزيراً، وأخذت تهطل مدة ساعة، ومع ذلك كان الجو حاراً وخانقاً. وغسلت الأمطار جسد الميت، ويللت شعره الناعم المسترسل. ونبتت الأشواك بكثافة، ولفظت البحيرة ما بها من أعشاب غريبة وأسماك ميتة.

قامت المرأة من رقدتها، وخلعت لثامها، ونهرت الرجل والقس وقالت ما هو الدين ؟ وهل الدين هو الشجار والاختلاف ثم أشارت إلى النائم ثم تحدثت عنه وقالت: " عندما سألته عن ديانته لم يجب، ونظر إلى

السماء. والي يمامة كانت تلتقط بعض الحب على مقربة منا وقال

ديني هو السلام. ليته يؤمن العالم به ثم قال أشتهي الزيتون الأخضر.

وعلي مقربه منا وجدنا حقل زيتون فقطف فرعاً، وأعطاني إياه ثم وضع

أصابعه على جبيني".

قالت قال لي عندما تجدين قوماً يتشاجرون اقتربي منهم ولوُحي

لهم بهذا الفرع فسيتذكرونني ويعرفون الرسالة جيداً ولا داعي أن

تذكريني ولا تذكري السفينة فقط أظهري هذا الفرع وسيعمُّ السلام.

فضحكت وسبقني إلى حيث أتينا.

استمع الحاضرون لكلام المرأة وتعقلوه واتفقوا أن السلام هو المراد،

وهو الحل للمشاحنات والقتل الموجود فى قريتهم والقرى البعيدة ولكنهم

تصعبوا وقالوا: "السلام صعب المنال إلا إذا مات الشر من الدنيا وهذا

مستحيل !.



الطفل الذي كان مهتماً بالجثة وجد طفلة في مثل سنه على مقربة منه تبيع أقراطا مصنوعة من صدف البحيرة وعقودا" من الودع الصغير فأخذ يداعبها ويجري وراءها وتسابقا نحو شاطئ البحيرة، وأخذ يرشُّ على ملابسها الماء، وهي كذلك فعلت مثله، وعلا صراخهما وضحكاتهما. ثم جرت الطفلة نحو الجسد الملقي على الرمال ودارت حوله سبع مرات وهي تُغنيّ وتقول انا أيضاً أحبُّ هذا الرجل هو طيِّب مثل جدّي وأخي الكبير الذي يصطاد كل يوم ويعطيني أصداف البحر وأمّ الخلول، ثم وضعت في يد الميت قطعة حلوى وبعض القروش، وقالت: عندما يستيقظ سوف يبتاع بها ما يحلو له وسيلعب معنا. ثم جرت نحو البحيرة التي دكن لونها حتى أصبحت تشبه الرماد.

إحدى السائحات التي تحمل آله تصوير، وتحمل في يدها زجاجة مياه وتضع فوق عينيها نظارة بنية ووجهها ملتهب من أثر الشمس المحرقة، اقتربت بتوجس نحو الجثة واستأذنت الحاضرين قبل أن تفعل ذلك، وقالت: إنه يشبه قريبا لها أتي مصر منذ فترة، وإنه أمريكي

الجنسية ولكن المرأة التي كانت تحكي منذ قليل قالت إنها كاذبة،لأنه كان يتحدث العربية بطلاقة فكيف يكون أعجمياً. وأجابت المرأة الأجنبية التي تكشف عن جزء كبير من صدرها وتلبس سروالا يُبَيّن ساقيها النحيفتين: إنه من الممكن للأجنبي أن يتحدث أية لغة بدليل أنها هي أيضاً تتحدث لغة هذا القوم.

قالت بلغة غير فصيحة إن هذا الشخص الميت جاء إلى هنا بعد الحرب العالمية الثانية، ولكنه تاه في صحراء العلمين، ومشى فيها حتى وصل إلى واحة الفيوم وبنى فيلا صغيرة على الشاطئ الغربي من البحيرة، وأن النقود التي جلبها معه من بلدته أعطاها لبعض البدو ليجلبوا له قوالب الطوب، وبنى هذا البيت بنفسه وعاش وحيداً يقرأ الكتب القديمة ويترجمها إلى لغته ". ثم أخرجت المرأة كتاباً أنيقاً بألوان زاهية وقالت: هذا آخر كتبه.

الذين لم يروا كتباً من قبل انبهروا بألوان الكتاب، وأخذوا يقلبون صفحاته ويحاولون أن يفكوا رموزه دون فائدة.

هو أيضاً فتح لي بابه وسمح لى باستخدام صحن داره لأصنع فيه التماثيل والأواني الفخارية وأعلم فتيات وصبيان القرى المجاورة في سنورس وسنهور كيف يصنعون أشياء على هيئة الطير وعندما يرانا يفرح ويبتهج، ويقول: "صُنع آدم هكذا في البدايات"، وسألني عن الروح وقال: "ابحثي عن معنى فعل "كن" فسيصل بك إلى الحكمة والقدرة "، وعندما حطم بعض المهاجمين من قرية كحك التماثيل قال: "إنهم لا يفهمون"، غادر المكان ورحل وترك لى رسالة يقول فيها: " أجساد لا تعترف بالروح سكن الشيطان".

المرأة المحجبة استفزها الحديث فقامت نحو المرأة الأجنبية وقالت لها: أنتِ غريبة ولا تعرفين عنا أو عن ضيوفنا شيئاً وماذا أتى بك إلى هنا؟ وماذا تفعلين، لم يعد لدينا رجال لتأخذيهم معكِ، وكفانا ما

أصابنا منكم، لقد أفسدتن علينا رجالنا، بأجسادكن العارية وبملابسكنّ السافرة، أينما تحللن تجلبن الخراب ثم سألتها ماذا يفعل المغني الشاعر كل ليلة في صحن دارها ".

ثم استطردت قائلة: أنا التى أعرف من هو تماماً وليست هذه المرأة الغريبة التي بهرتكم بلحمها العاري وبغنجها ثم جرت نحو الجثة ومالت على صدره وقالت انظروا هنا، انظروا إلى هذا الشقّ. أنا التي أعرف سبب هذا الشقّ الذى فى صدره، فانتبه الجميع وتجمعوا حول الجسد يراقبون ماذا تفعل المرأة التي هي منهم ويستمعون بحرص لكل ما تقول.

بينما أراقبه من بعد أفكر فيه ولغزه إذ بي أجده يستلقي على الرمال ويخلع قميصه ويعرض صدره للسماء الذي ما يلبث أن يحدث به شق وينفجر منه النور ويخرج السواد القاتم الذي يشبه دخان لهب انطفأ تواً يتصاعد عالياً ويتجه نحو البحيرة مع ذلك ولا يقطر صدره دماً. ثم

ينغلق الشّق وينحسر النور إلا عن وجهي ووجهه، ثم قامت وقبلت الشق، وأخذت تبكي وتبتعد عن الحضور ثم نامت بجوار خُصّ صغير.

سألت المرأة الأجنبية الا يوجد بوليس في هذه المنطقة ؟ فرد رجل من البدو مجيباً:" نحن السلطة ولا يدخل غريب بيننا.. وعلى العموم الشرطة لن تبعث الروح في هذا الميت مرة ثانية بل ستقلق سلامه وراحته نحو رحلته الأبدية ".

ولا يعلم الحاضرون لماذا قالت المرأة "ننقله في مركب الشمس في رحلته نحو السماء "، ثم أخذت تلتقط بعض الصور للميت، وعندما سألها الرجال لماذا تفعل ذلك ردت قائلة سأرسلها إلى إحدى الجرائد ربما يتعرفون عليه في بلده فالغرباء يجب أن يدفنوا في أوطانهم في تراب الأرض التي صنعوا منها. بالطبع ستكون أحن عليه من هنا حتى لو كانت أرضكم أدفأ من عندنا، ورغم من أنّ الحاضرين شعروا بالمهانة لأنها تتهم أوطانهم بعدم الحنان، فإنهم وجدوا العذر لها في أن تقول

ذلك، ألم يقتلهم الحنين لأقاربهم الذين ماتوا في الغربة ولم يعودوا وما أكثرهم في بلاد بابل والجزيرة العربية.. ذهبوا يرتزقون ولم يعودوا حتى اليوم.

بعد فترة جالست السيدة الأجنبية أحد الشيوخ وساومته على صفقة من بعض كنوز قارون المدفونة تحت رمال البحيرة، فضحك ووعدها بالأمان. فأعطته نجمة ذهبية، همست وهى تضغط بشبق على أصابعه السمراء الطويلة كلمة السر " دواد ملك اليهود ".



شبح الجثة ظل يطارد خيال العمدة لفترات طويلة وفى أوقات كثيرة ظنه شبح صبي لم يبلغ السادسة عشر من عمره ولم تبلل الأحلام الجنسية سرواله إلا مرات معدودة قتل هذا الصبى أحد أقارب العمدة خطأ أثناء مشاجرة بسيطة اثناء لعب الكوتشينة داخل الحقول وفتش عنه العمدة فى كل مكان وأذل الأب أمام القرويين والصيادين ولم

يرحم دموع الأب الذى عرض حياته فداء لأبنه ولكن العمدة لم يرض بالصبى القاتل بديلاً عن المقتول، ثم بعد فترة وجدوا الصبى مختبئاً فى احد القوارب ليلا يقتله الصقيع والخوف، وفى مشهد لن ينساه أهل القرية وضُع الصبى على إحدى الدراجات البخارية وكان يحتضن أباه من الخلف، وفجأة انطلقت رصاصة من قسوتها أسقطت النجوم من مجرتها، واستقرت فى رأس الصبى الفقير المعدم وأوقعته على الأرض وسط ذهول الأب وقلة حيلة الرعية وفرحة القساة. ولكن من حين لآخر كان يظهر الصبى للعمدة على هيئة شبح يقذفه بحجر فيفقأ عينيه وينفجر الدم ليملأ غرفة نومه ويتدفق خارجاً حتى يختلط بمياه البحيرة.



الناقة التي كادت تقضم صاحبها فوجئ بها الحاضرون تجرى نحو الجثة وتبرك ببطء وتدمع عيونها، تفرك بحوافرها الرمال كأنها تبحث

عن شيء، أبتعد برهة جاء الجمّال يلهث وكأنه أتي من أقصى المدينة ، وقال كلما حاولت أن أبعد عن هذه الجثة تناديني فليس لدى حيلة غير الطاعة، وهذه الناقة العاصية انقلبت عليَّ واتّبعت خطوات أقدامه ورائحة عَرَقِه وكأنها مُسِخَت كلباً، فمنذ أن لمحته منذ فترة وقد تغير حالها وعصت أوامري وكأنه سحرها منذ أن رقاها بكلمات تامات غريبة.

قال أحد الرجال لماذا تقص علينا قصة ناقتك ليس لدينا رأس لسماع هذه الحكايات؟ أطعمها تطيعك وأكفها وكفها تخدمك وتصبح سفينتك في وقت المحن، قال الجمال دعك من الناقة فحكايتها بسيطة، لماذا تجلسون هكذا وتركتم أحوالكم وسبل عيشكم وجلستم تنظرون إلى جثة هذا الغريب ويتعاقب عليكم القمر بمراحله والشمس بكسوفها، أليس لديكم ما تفعلونه؟، لم ينتبه إليه أحد؟. وأخذوا يتساءلون فيما بينهم عن الحكايات التي سمعوها من الآخرين، وبعد أن وجد عدم اهتمام منهم قال الجمال: أنا أعرف حكاية هذا الغريب تماماً.. واشرأبّت الأعناق تجاهه، والتفوا حوله كأنهم في السامر.

قال لقد وجدته تائهاً في الصحراء بطولها وعرضها وكذلك نحن نتوه أحياناً ونصل أحياناً، عندما نجوع نصطاد الأرانب، ونأكل جذور النباتات البرية، وعندما نعطش ندلو بدلونا في الآبار المهجورة، ونشرب ولا نرتوي، وكنت أجعله يشرب الأول حتى نتأكد أن المياه غير سامة، كان يجلس أحياناً ويقلب وجهه في السماء ويتمتم بكلمات غير مفهومة، ويتحدث إلى الناقة التي تومئ برأسها وكأنها تفهم لغته، وكنت أغيظه بأن أسمعه بعضاً من أشعار البدو، فيضحك ويقول جميلة، ولكن بها الغواية.

وعندما طالت الحكاية نظر الحاضرون إلى الجثة الراقدة وقالوا للجمَّال: انظر إليه جيداً وقل هل هذا هو الرجل الذي تحكي عنه أم جِنٌّ الصحراء قد سَلَبَت عقلك، فلم نعهدك تقول الحكمة ولا الحكاية من قبلُ فشعر الجَمال بالإهانة، ثم علا صوته وقال " إن لم يكن لديكم شوق للحكاية، فسأتوقف هنا، ولن أكمل، فتشاور البعض، وقالوا "احكِ، ولا تختصر" فشعر الجمَّال بالزهو واعتدل في جلسته، كانت المرأة المحجبة

قد قامت من رقدتها وجاءت فجلست بجوار المرأة الأجنبية وأخذت تستمع ثم بدأت أحنو عليه وتحولت قسوتي إلى رقة وزالت غربتنا عنا ووجدت فيه جمالاً غريباً وحكمة الطيبين. ودست على فظاظتي في القول والفعل وأخذت أنشد له الأشعار وأستيقظ في الصباح وأجمع له العسل من البيوت الجبلية ولا أتركه دقيقة يرحل عني حتّى وإن أراد الاختلاء لقضاء حاجته أو التأمل. وكان كريماً في القول والفعل فلم يتلفظ بقولٍ جارح ولا فعل خارج وببركته لم تقترب منا العقارب ولا الحيّات ونام عنا قطاع الطرق وصعاليك الصحراء وكنا كلما نسير نجد خياماً قائمة وناراً متقدة. وشبعنا ببركته من رائحة الشواء والقهوة المحوّجة، ورقصت له الغجريات رقص الحجلة، وأنشدن فيه أشعاراً وغزلاً فكان يستحي ويحمر وجهه وذات ليلة أعطيناه عرق البلح خمراً لم يتغير لونه فشرب وارتوى ولم يحسبه خمراً فحكي واستطرد هذا الغريب الراقد أمامكم، وقال إنّ أباه ذهب في إحدى الحروب القريبة، إما إلى فلسطين وإما إلي اليمن وكان يجلس وحيداً يقرأ كثيراً فى غرفته وذات ليلة

سمع صوت فتاة تناديه أن يتبعها فخرج وراءها تاركاً كل شيء: منزله العريق وكتبه بلغاتها المختلفة ولم يحمل معه سوى خارطة مُهتَرِئَة.

هام الغريب في الشوارع وفي الطرقات يبحث عنها، وأحبَّ الوَحدَة. فمشى بجوار النيل من الإسكندرية حتى أسوان، دليله القمر الذي كان يرى فيه صورة المرأة التي نادته، والشمس التي يستمد منها حرارته في الاستمرار. وقال إنه يبحث عن الفتاة لأن معها مفاتيح الحكمة الغائبة عن البشرية وحاول جاهداً أن يجدها فبات يتحدث إلى الغرباء، فمنهم من يقبله ويستمع له، ومنهم من يؤذيه وينبذه، ومنهم من يمر عليه مرور الكرام فدخل الأسواق يبتاع منها، وتحدث إلى الطير والحيوان والحصى في الطرقات يسأل عنها.

قال لي إن عرافاً عجوزاً أخبره: إن سرَّ هذه المرأة موجود في إحدى التمائم المدفونة تحت تابوت حتشبسوت هناك في وادي الملوك وهي نفس التميمة التي من أجلها جاء نابليون ليحصل على حكمة الشرق، ولكنه

فشل عندما انتشر الطاعون بين جنوده وحصدهم كأعجاز نخل خاوية فلم يرى نابليون لهم باقية.

وإنه ذهب إلى الجبل الأخضر في ليبيا فلم يجد هناك شيئاً إلا مجموعة من الأشعار لا تبني الحكمة، وإنه عاني كثيراً فى صحراء ليبيا لولا أن وجدني هناك.

ثم أخذ يتركني ويذهب وحده فشعرت بالخوف والغيرة عليه فهو اكتشافي وملكي ودينه هو لي، وخفت عليه عندما رأيته يذهب للغجريات. فيدققن له الوشم ويرسمن له فتاة ناهداً بأرداف ممتلئة وشعر طويل تشبه الفتاة التي نادته، وأخذ يصحن الرمال، ويملأ القدور بالماء المالح ويتركها في الشمس لتتبخر ويشرب بخارها ويحتفظ بملحها ليضعه على البخور. ويحفر الخندق لينام ويختبئ فيه ويمشي بين الخيام يبشّر بالحكمة التي يبحث عنها، والتي قال إنه سيجدها

فشغف الناس به، والتفوا حوله حتى ناقتي فتنت به وتبعته في كل مكان يخطو إليه.

وفى ليلة قمراء مثل هذه قال أريد أن أنزل إلى البحيرة فهناك أصوات من تجاهها تناديني منذ زمنٍ بعيدٍ؟. وأعتقد أن رحلتي ومأربي مرهونان بهذه البحيرة. ثم خلع قميصه ونظر للوشم. ثم ناداني وقال هذه هي الغجرية العجوز وسأسبح في البحيرة معها حتى الصباح فإن صبرت عليها سأحصل على الحكمة " على مقربة فزعت عنزة رأت ذئباً فأخفت وليدها بين ساقيها الذي التهم ضرعها بقوة فشعرت باطمئنان.

ثم خلع سرواله فبدا وكأنه النور الساطع على الأرض وردد كلمات ثم ضرب قدميه في المياه فانتفض وبدأ جزؤه السفلي يختفي تدريجياً إلا من رأسه التي بدت وكأن فوقها هالة من النور الفضي وكأن القمر قد حل محل رأسه، فصرخ وقال: لقد فرضت عليَّ شعورها وستأخذني معها لتعطيني حكمة الآباء هناك حيث الكنوز المدفونة في الرمال.

ثـم أشـار المتحـدث وقـال: " هـاهو موجـود أمـامكم قـد لفظـه رحـم البحيرة، فهـل للحكمـة مـن أثـر علـى هـذا الجسـد الميت الـذي سـيتحلل عندما تشرق شمس يوم جديد ؟!



كان صوت الصمت قد لـف الحاضرين، وأصيبوا بدوار مـن الحكاية إلا مـن المرأة الأجنبيـة الـتي قالـت: دائمـاً أنـتم هكـذا تؤمنـون بالخرافـة وتعشـقون الحكايـة لا تصـدقوه، قصـتى هـي الحقيقـة، مـاذا يعـرف هـذا البـدوي عـن الحكمـة؟ إنهـا لـدينا ونحـن نملكهـا وإن أرادهـا هـذا الجسـد الراقـد أمـامكم كـان سـيعود إلى مـوطن رأسـه، إنهـا امـرأة وليسـت وهمـاً كما خدعكم البدوي بحكايته.

السـيدة الـتي كانـت تعـيش في خُـوصٍ بمفـردهـا علـى رمـال الجزيـرة البعيدة التي تتوسط البحيرة والـتي يزورهـا الرجـال والرحالـة لـيلاً فقـط ليشـاهدوا ظلـها وهـي تتحـرك مـن وراء الخُـص، أو تميـل بجـذعها لـتطعم

عنزتها الوحيدة ذات الضرع الكبير. والتي ما أن تحلبها حتى تغسل يديها ووجهها بشرابها السائغ، كانوا لا يدرون لماذا يذهبون إليها؟ وما هذه الطاقة السحرية التي تدفعهم للحج إليها؟، وما هي القوة الخفية التي تمنعهم من أن يتحدثوا إليها ؟ أو يغازلوها؟ والتي لم يكن أحد يقدر أن يتفوه بكلمة أمامها، فقط يتركون هداياهم من بعض التمر أو كيس من "عين الجمل" الذي جلبوه معهم من بلاد الشام، أو طاووس ذي ريش جميل، أو قنّينة عطر قديم، رائحتها تشبه رائحة القنينة التي أهدتها مريم للسيد المسيح في أسبوع الآلام والتي تحتوى على طيب خالص باهظ الثمن والتي قدمتها له يوم الأربعاء حيث دهنت به قدميه ثم مسحتهما بشعرها. أو رسائل عبارة عن أبياتٍ من الشعر أو توسلات لمحبين قهرهم الشوق للّقاء والامتلاء، قالت أنها هي التي استقبلته وهو قادم من رحلة طويلة ثم اقسمت إنها وجدته ملقىً على الرمال وجسده تملؤه التقرحات وأقسمت إنها رأت سمكة كبيرة تلفظه، ووضعت السمكة أمامهم فقال الناس إنها الحوت. وعندما قالت أن القرح التي كانت

تملؤه تنزُّ منها رائحة المسك والعنبر تأكدوا تماماً أنها الحوت.. قالت أيضاً إنه كان يهمس بكلمات عن ظلم النفس، وغياب العدل. أما هي فباتت مشغولة به تطيبه، فتدهن جسده بزيت الزيتون حتى يخف الالتهاب، وتضع أقمشة قطنية ناعمة حول رقبته وأذنه ثم تسكب عليها عسل النحل البريّ. ثم تسقيه شراب النعناع البري الذي ينمو بكثرة بجوار ينابيع المياه ليلين أمعاءه ويهدئه وتوقظه مبكراً لكي يتنفس الهواء البكر ويشهد أول طلوع للشمس، وتصلى ليكتب له الحياة، وعندما خفَّ التهاب جلده واستطاع أن يتحمل الشمس صنعت له فراشاً من القش ثم جرته بحبال صنعتها من سعف النخيل الذي ترك أثره الغائر على خطوط يدها إلى عين ماء رائق، وهناك نزلت به إلى العين وغسلته فيها، وأشربته ماءها حتى امتلأ فبرأ ودبت فيه العافية بإذن الله.

قالت: هو الرجل الوحيد الذي ملأ قلبي، وتحركت مشاعري نحوه فكان أسرتي كلها، فمن أسعده زمانه أحبه الناس وأحبهم وعندما كان ينظر لي بعينيه الممتنَّتين كانت تلبسني إرادة قوية جعلتني أخدمه حتى

يتعافى،كنت أوقظه مبكَراً لكي يتنفس الهواء البكر، ويشهد أول طلوع للشمس، وأصلي لتكتب له الحياة.

وفى يوم آخر دخل عليَّ هذا الراقد أمامكم خُصي، جماله أربكني وجعلني أتوتر وأصابني وهن الرغبة فذبت حياءً، وتسمَّرت مكاني وثقلت قدماي فهي كالصخور، ولما رآني، ابتسم، ومدَّ يديه. وقال " أكرمك الله مثلما أكرمتني " وقال الزمان لن يضنَّ عليك بالخير، ثم وضع أمامي شموعاً كثيرةً، كان قد صنعها من دهن العنزة التي ذبحتها لأطعمه، ثم خرج ورحل. ورأيته يسبح عائماً وتركني في الخوص وحيدةً، أنظر للسماء التي احتضنت مياه البحيرة. وفى الليالي التي احتجب فيها القمرُ، كنت أضيء الشموع وأتذكر همس أنفاسه، وعطر حضوره على كل الأشياء". هكذا تكلمت السيدة التي حلم رجال القرية برؤية ظلّها ثم سكتت وهي تغطي شعرها بشالها الحرير الأسمر، ورحلت تحمل شمعة أنارت الدنيا وما حولها.

العمدة ضاق ذرعاً بالحواديت وقال الكتب مملوءة بالقصص لو كنا نريد الحكمة وأراد أن يخرس الفلاحين والصيادين وهددهم بالطرد لأنهم يريدون تخليد هذا الميت وشعر بالحقد منه فهو يريد أن تظل سيرته هي السيرة التي تحكي، وأن يظل الفلاحون والصيادون علي ولائهم وهتافهم له ويحياته أمر الحراس بفض التجمعات وحظر الحديث والخوض في سيرة الموتي حتي ولو كانوا من الأنبياء، وضاق الناس بذلك وقالوا حتي الحديث محرمون منه فما بال الفعل؟، ولكنهم خلسة ظلوا يجتمعون وأوهموه أنهم خاضعون له ولإرادته وأنه أصبح صورة الإله علي الأرض، ولكن هيهات لأن الحواديت ظلت تحكي وظل يستمعون الناس لبعضهم بعضا.



ثم جاء رجل خافه النَّاس وأهابوه، وعندما نهُق حماره استعاذ الحضور من الشيطان. كان يبدو على قسمات وجهه أنه استيقظ من

نوم مَدته مائة عام أو أكثر، أو أنه قام من موته، حتى حماره كانت عيناه بهما لغز غموض الرحلة والعوالم غير المرئية التي مرَّ بها في وَحدَته وصاحبه نائم، فإذا نام المالك فما بال الرعية من البهائم؟. جلس الرجل وفتح لفافته ثم أخذ يأكل والناس يتفرجون عليه بذهول، يأكل بصلاً ليس له رائحة، وماء رائق كأنه أذابه في الشَّبَّة، وحماره يقف يرفس بحوافره طالباً نصيبه، فيرمي له بعروش البصل ثم قال: ‹‹يحيا يوماً ما ويستيقظ، الله قادر على كل شيء.ثم أضاف: منذ سنين عديدة سألني هذا الراقد بينكم: أيحيى الله هذه القرية بعد موتها؟ فقلت له ما الموتُ؟ فقال أن ترى الظلم فتسكت عليه، وتُلِبس الحقَّ بالباطل، ولا تعطي المستضعف حقه، وأن تعيش اليوم وتزهد الغد، فقلت له الحكمة تؤذي صاحبها وخفت أن أحكي له حكايتي، وعلاقتي بالموت، ولكن هاهو يرقد وسطكم، فأنا أمشي بحرية بعد ما اختبرت الحياة والموت والحياة ثانية، فهي حلقة غير متناهية، ثم جلس يبكي، حتى جرى ينبوع صنعته دموعه تجاه الحقل. وقال ابنتي غرقت في مياه الترعة في غفلة مني، فحزنت

عليها ونظرت للسماء بغضب، ولم أعلم حتى الآن إن كان غضبي قد قبل برحمة أم بلعنةٍ، ولكنها كانت ابنتي الوحيدة، وأمها تحبها كثيراً، وتحلم بان تجهزها وتحمل أحفادها وتخدمها في عجزها، قال لي " الموت من ضروريات الوجود"، ثم رحل، وبحثت عنه كثيراً، والآن وجدته بينكم، ثم وضع إبريقاً بجوار الجثة، ثم قال سيحتاجه عند قيامه ثم استأذن وقال: زوجتي ستضع حملها بعد فترة وجيزة، وعلى أن أذهب، ثم جر حمارهَ، ثم اختفى.



قال أحد الرجال كان غريباً وآتياً من بلاد النوبة، وجلبابه الأبيض يتناقض مع بشرته السمراء القاتمة لكنه يتناغم مع شعره وشاربه الأبيض ثم علا صوته وانتفخت عروقه وجرت الدماء الحمراء فى وجهه حتى كادت تنفجر من عينيه وصرخ قائلاً: طهره أكذوبة ونقاؤه ملوث فالدنس دينه والرذيلة طريقته، ثم أشار إلى عورته، وقال هذا سر بؤسه،

وقال: إن جردتموه من سرواله، فلن تجدوه ذبحت عورته عقاباً على خيانته. اهتزَّ الناس للخبر وتركزت أبصارهم على عورة هذا الراقد، ثم استمر الرجل قائلاً: تركناه في القرية البعيدة كان ضيفاً فأَوهَمَنَا بدينه وبطهارته ليحرس نساءنا وبناتنا وأطفالنا، وقلنا هو خير حارس وحافظ وكانت نسائنا أصابها الجدب منذ أعوامٍ وبناتنا ذهب خُطابهن للقتال والقنص، ومكثنا بعيداً طويلاً ثم تركناه يكتب لغة لم نفهمها، قال إنه نقلها من فوق جدران المعابد العتيقة والحجر الشهير، وعدنا فوجدنا نساءنا ترُضع أطفالاً، وبناتنا قد انتفخت أثداؤهنّ وامتلأت أرحامهن فقال العائدون كلمتهم، وألقيناه في النيل الذي يمر بجوار المعبد الشهير هناك، والذي تتعامد عليه الشمس كل عام في ميقات معلوم، ثم رسمنا بالألوان عورته على قمة المعبد، وعدنا وفرحنا بذريتنا، أنا الوحيد الذي تتبعته فهو ذنبي، رأيته عندما كان يجرفه النيل حتى انحرف إلى بحر يوسف، ثم إلى البحيرة، ثم إلى هذا الشاطئ، وبالرغم

من ذلك كان ينظر لي ولا يلومني، وكانت هناك دائماً راحة وابتسامةُ

تماماً كالتيهى مرسومة الآن على وجهه، ثم سكت.



شاهد الجالسون من بعيد بريقاً يخطف الأبصار فوضعوا أيديهم على جبينهم لعلهم يبصرون هذا الشيء، كان كتلة من الذهب تشبه العجل، يحملها كاهن يرتدى السواد، وخلفه أجنحة مكسورة تشبه أجنحة البراق، أتي متأنياً، ثم أخذ ينظر في الجثة ويدقق النظر، ثم مال وأمسك حفنة من التراب وألقي بها في الفراغ، ففزع الناس، وأخذ ينفخ فيها، ثم بدا عليه الذعر والخوف عندما حاول أحد الحاضرين أن يلمسه فطار بعيداً ولما هدأ الرجل قال: بحثت عنه في الجبال وفتشت في وادي الجراف، ووادي العريش. ثم قال عندما ذهبت عند الصحراء التى تقع خلف البحيرة، وجدت أعرابياً وخيمة كبيرة تحرسها أسود البرية وبداخلها يجلس شيخ وعليه بردته قوى البنية وأجهر الصوت وعليه

ملامح الصرامة والرجولة ويقرأ كتاباً لونه أخضر لون عباءته والثورة التى يبشر بها، وبين الحاضرين يهتم بفتاة إيطالية جميلة المحيه تفوق نفرتيتي فى جمالها وعندما يمزح مع وزرائه يقول "جعلنا مستعمرينا عشاقنا" لم يفهموا كل ما قاله الشيخ إلا أنهم سلموا له ووافقوه فى كل ما قال. وعندما رآنى أسمع لى ولم أعرف لماذا قربنى منه رغم منعة الحراس لى فى البداية، وقال: إن أردت الفيوم كلها أحضرتها لك وليس هذا الرجل فقط وإن كان لك حق فكنوزى فداء لحملك الذى تاه، وقال الصحراء متاع لنا ولا تفصلنا عن أولاد عمومتنا حدود.

قال الحاضرون: هذا الشيخ أفضل من عمدة قريتنا فهو يحب أهله وعشيرته ويجزل لهم العطاء، ويقف موقف الشرفاء مع المستضعفين في الأرض، يقولون عنه عنيف ولكن العنف والقسوة من ضروريات القوة. وعادل فهم يقسم ثروته بالعدل بين أهله ليس مثل العمدة الذي يضن علينا حتى بالخبز الجاف.

ثم أضاف الكاهن قالوا لى إنه في جبال الراحة فلم أجده، والجبال الحمراء والصفراء، وجبل عرف الناقة، ولكن لم أجد إلا أثراً لقدميه اللتين أرشدتاني إلى هنا ونجمة تحمل ملامح وجهه ولكن من دخل برية التيه لن يُعثر على ظله، ثم أخذ يصرخ، وقال كاذبٌ من قال "إنه يعطي الحياة لمخلوقات نفقت" ثم جلس يبكى، ثم رفع صوته وقال كأنه يروى حكاية جديدة: الذي بينكم خرج مع قومه يوماً ما، وتاه في الصحراء أربعين يوماً وليلة وكان من المفروض أن يعود حياً، ولكنه لم يعد، ولقد صنعت هذا العجل كي يتحدث إلى وأحظى بكرامته، ولكنى وجدته راقداً بينكم.. مع من أتحدث إذن ؟ ومن سيشهد المعجزة ؟ ثم قال: جلبت له المنَّ والسلوى، وبعض الحبوب، من فولٍ وعَدَسٍ وحمُص ثم أخذ يفرق ما فى بقجته.. بعض الحاضرين لم يرفضوا عطاياه بل خرجوا وذهبوا بها إلى بيوتهم ليفرحوا زوجاتهم، ثم قال الكاهن: "سأنتظر حتى يحضر أخوه، وإن لم يحضر فلن أبرح هذا المكان أبداً فقد لقيت من سفري هذا

نصبا، ثم مد بساطاً ونام على مقربة من الناس، واشتغل الجالسون بالتفتيش في متاعه، والنظر إلى هذا العجل الذهبي باشتهاء ودهشة.

التي سمع عنها أهالي القرية والقرى المجاورة وعن رضيعها، واختفت منذ ولاداته خوفاً من الرجم والاضطهاد جاءت تحمله، وعلى وجهها إرهاق الوضع. كان بين يديها مثل النور وهالة بحجم قرص الشمس عند الغسق وراء خمارها، لدرجة أن الحاضرين لم يستطيعوا النظر إليه، كانت تتكئ على واحدة من عسف النخل، ودخل الحاضرون من بهاء الطفل في نشوة هدأت لها روحهم حتى غشاهم النعاس، وسمع صوت الطفل يُبَرئ أمه من الدنس. أهل الذمة من اليهود الذين تنصروا ولم تدخل المسيحية قلوبهم والذين كانوا موجودين بكثرة، استهزءوا بالنور وبحضور السيدة الجليلة. وظلوا على موقفهم العدواني تجاهها، ونظرات العنف التي صدّروها لها جعلتها ترتعد لولا صوت الحنان المنبعث عن كلمات وليدها. وبعد ما انتهت من مرورها بينهم، وضعت السعفة ووشاحها جانباً، وقالت: يجب أن نغطي وجوه الموتى حتى ولو كنا

نحسبهم أحياء وأضافت بجلال: من تحسبه ميتا فهو حي بالتأكيد، والرسالة التى أتى بها هى المنشودة، ثم رحلت وسط ذهول الحضور، ثم اختفت كما ظهرت كأنها النور المقدس الذي يشرق على الأرض، وكأنها النبوءة.



صفرت الريح العاتية على البحيرة، وأطاحت بأشرعة القوارب بعيداً وأخذها الهواء بين طياته، هاج الموج حتى كاد يلمس اليابسة وكاد الموج يلقف الجثة داخل بطن البحيرة لولا أن الناس تجمهروا وأمسكوا بها، وأخذت الأمطار تسقط بغزارة، وأمسك الجالسون بأيدي بعضهم البعض خوفاً من الانزلاق ووضعوا أطفالهم تحت أرجلهم خشية أن يسحب الموج هؤلاء الضعفاء، وأبرقت الدنيا ورعدت.

وفى هذا الوقت ظهر لهم شيخٌ كبير لم ير الحاضرون مثله في شيبته وعجزه وكان يحمل في يديه ذكراً وأنثي من الحمام.

ثم قال لقد حذرته من هذا اليوم ولكنه لم يستمع لى وقال لي إنه ليس ابني لأحزن عليه ولكنني حزنت عليه حزناً شديداً ولازلت أزور قبره على الجبل البعيد، أفتش في أعماق البحار لعلي أجد جثته، ولكن كل ما أفعله هباءً. واليوم سمعت بقصّة هذا الرّاقد بينكم فجئت أراه، لعلّه يكون هو، وربما يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان أن لا تلاقيا، وعندما يئس من أن يتعرف عليه، نظر بعيداً نحو البحيرة فظهرت سفينة تشبه البيت الكبير..

فاتجه نحوها فركب، ثم اختفت.

❖ ❖ ❖

علي جدار حجرة العمدة كانت لوحة من القماش عليها صورة بألوان طبيعية لطفلة لاتتعدي الرابعة من العمر بيدها شمعة مضيئة رسمها لها فنان قبطي متخصص في وجوه الموتى التى توضع على الأكفان، أصر الأب أن يطلبه في وقت متأخر ويرسم الطفلة علي فراش

الموت ويرغم جلوس ملاك الموت في بؤبؤ عينيها إلا أن الفنان استطاع أن يرسم هذا البورتريه العبقري في دقائق قليلة هي وقت احتضار الطفلة، رسم منها قطعتين: واحدة غطى بها كفنها، والأخرى علقت على الحائط لتظل حاضرة في المكان ولا تغادره أبداً برغم اعتراض حسام علي تعليق صور الموتى على جدران بيوت الأحياء.

قال العمدة لنفسه هذه الأموال لنضال ولحسام، فأولهما أمهر في الحفاظ على مالي وزيادته فقد ورث عبقريتي وحبي للجاه والذهب، أما الآخر فهو زاهد يحب الغناء والاستماع إلي الألحان فهو يهرب كل ليلة ليذهب إلي المرأة التي تعيش بمفردها هناك ليحظى بوصالها ونعيمها.

نضال يعلم تماماً كيف يحقق الثروة، وهو مصر علي أن يحكم القرية بعدي ولا يتركها لغيرنا، لقد بشرتنا الملائكة به بعد مقتل سيدي الذي كنت أعمل معه حارساً. عندما قتله الخونة أوصاني والخنجر في صدره أن أحكم هذه القرية ولم يكمل جملته بالعدل أو

بالظلم.. هذه القرية تستحق كل ما يحدث فهي قرية ليست آمنة، ولكنها متمردة علي كل ما هو سائد.

كان من المؤكد أنه يتخيل نفسه "قارون" ينظر من نافذة قصره نحو سفن الصحراء القادمة يكسرها الإعياء والسفر الطويل، كان متمعنا في النظر إلي جمالها وروعتها، ويشفق عليها من الأمانة التي تحملها، ثم وضع يده علي حافة النافذة فأدارت الشمس قرصها بعيداً عندما ارتد شعاعها من فص خاتمه الكريم الذي يشتري بثمنه بلدة كاملة بخيلها وأرضها وناسها.

وفي مشهد لا يتكرر كثيراً إلا فى الأساطير، كانت الجمال تشق الصحراء تغرس أكفها في الرمال الناعمة والشمس تتوسط السماء، والجمال تلهث من الحمل الثقيل من صناديق ممتلئة بمفاتيح خزائنه: مفاتيح من ذهب ومن فضة ومن حديد مطروق بأشكال مختلفة مثل

مفتايح الحياة للمصريين القدماء، ومفاتيح عليها درع داود ربما صنعت منذ عهده البائن.

جمال تحمل علي سنامها نساء متشحات بالسواد، وعليهن علامات الإرهاق ونظرات تائهة وسط الفضاء الرحب، ويحملن أطفالهن على صدورهن، ويتمتن بصلوات ربما تؤجل ملائكة الموت عن الوصول لهؤلاء المحمومين. كانت وجهة الجمال نحو قصره الكبير الذي يملئ نصف الصحراء ويظهر من بعيد كأنه الشمس عند الغروب تغرق في الرمال.

تسأل: لماذا هذه الجثة في أرضى؟ وما حكمة وجودها هكذا؟ ولكنه أبعد الوهم عن نفسه هامساً: مالي لن يبلي، وجسدي لن يفني، وهذه الأموال لي وحدي ولذريتي وسيرثوا البلدة بعدي، ثم قال لنفسه: الموت ليس وقته الآن، نعم يخافه وخاصة عندما تجيئه الأحلام بأن الأرض تزلزل وتنشق وتبلع قصره، فيمد يده ليمسك الشق فيهرول أهل البلدة تجاهه ويدفعون رأسه بأرجلهم فيهوي في أسفل السافلين.



انتبه الناس إلى رجلٍ عملاقٍ قوي الجسد ويرغم تلثمه تظهر بعض خصلات شعره السوداء وعيونه تشبه كثيراً عيون الكواسر، قال الناس لن نستمع إليك حتى ترفع لثامك فهذا من شيم الشجعان.

قال كان وراءه ثأر، ورأيته يختبئ فى كوخ من الخص فى أحد حقول قصر بياض بعدما خانه أهل قبائل" الرماح"، هو ليس من عندكم فقد ولد على الجبل الأقصى هناك، أحب ابنتهم التي كانت مخطوبة لابن عمها وانتشر الخبر هناك فطالبوا برأسه، ودارت هناك معركة في" كاركوره" عند "برقة الحمراء". وثارت النساء على الظلم وركبت الجمال وشجعت الرجال، ورغم انتصاره إلا أن قبيلته قد طردته فرحل إلى مكانٍ ما وعندما علم بموت حبيبته، جُنَّ وربما انتحر.

هذا هو المصير، وإنني لأُطالب بجثته حتى يقام له ضريح ويكون عيداً لانتصارنا وقهراً لأعدائنا، كلام هذا الأعرابي ذكرهم بالحروب

وبالموت وبالمطاريد وعريان "زوي" و"الفواحير"، وترحموا على شيخهم "عبد النبى مطاريد".

❖ ❖ ❖

قالت السيدة: هي فعلت به هكذا، بعد أن جردته من قوته، وهذا مصير الرجال الذين يظنون بالنساء خيراً، استغرب الحاضرون، وقالوا الستِ منهن، قالت أنني " آكل الرجال كما أبتلع الهواء".

قالت: " هي التي ذلته وسط قومه من الرجال، وفعلت به فعلتها، هو ظنها الحب، وهي لعبت معه لعبتها، ورقصت على مصيبته طوال الليل لترضي غرورها وكبرياءها، هو ضحية لمحبتها، لذتها لا تدوم. رأيته مرة هناك يتلفح بخصلات شعرها الطويل المسترسل إلى مالا نهاية فحسدتها على شعرها وبغضتها، لأنها أخذت هذا الرجل. كنت أحلم به ولكنها أخذته منى، مثلما كانت تفعل دائما، هي منافستي على الرجال، لقد

باعته لهم، قالت له سأقص شعرك لأعرف من اين تأتيك هذه القوة. أسقته عرق البلح، وبعدما ثمل أشار إلى رأسه، ثم قالت "العلم هو القوة".

في الصباح رأيته ضعيفاً، يسحبه غلام، وقال إنه أعمي، لم أستطع الاقتراب منه، ورأيته يبتعد، عندما زرتها، وجدتها ترقص بهيستريا حتى سقطت ولم تفق من غيبوبتها حتى الآن. وتساءلت وصوتها يهتز كأنه فرع شجرة فى يوم عاصف: هل مات هو الآخر ؟

لم يرد عليها أحد، ثم مالت ووضعت بعض قصاصات شعر متسخة ثم رحلت كأنها لم تظهر.

❖ ❖ ❖

قال أحدهم للجموع الواقفة حول الجثة أنتم لا تعرفون شيئاً، الجهل قلص عقولكم وحولها لكتل من اللحم البارد وعيونكم تنقصها الدهشة واللمعان، لقد تحجرتم مع الزمن وهربت منكم المعرفة واحتضرت الحضارة عندكم منذ زمنٍ بعيدٍ. الراقد أمامكم كان رساماً،

يرسم لوحات لوجوهكم القديمة، ثم أخرج من بقجة صورة رائعة الألوان لامرأة جميلة ترقد بهدوء خمرية البشرة واسعة العينين، مكحلة الأهداب حاجباها غزيران ومنعقدان، وشفتاها ملوّنتان بلون الأحمر القاني، ثم قال: رسم من هذه الوجوه كثيراً، ستجدونها هناك مدفونة في إحدى المقابر البعيدة في صحرائكم.

أخذ الناس يلتفون حول هذه الصورة ويشهدون عليها، والغريب أن الصورة كانت تشبه بنت العمدة التى ماتت وأيضاً تشبههم كثيراً وكأن وجوههم قد تحضرت منذ آلاف السنين منذ أن مشى عيسي على الماء، وعندما رأوا علامة الصليب على صدرها وفى شكل قرطها بكت واحدةٌ منهن وقالت كانت تشبه واحدةً من أقاربي ماتت بحمى النفاس بعد أن ولدت عشرة من الذكور ثم ملّ الناس الصورة والحكاية وابتعدوا.

الطفلة التي كانت تلعب على الشاطئ ضاقت من اللهو، وأصابها الدوار من حركة الموج والحرارة وبرغم ذلك انجذبت إلى الجثة ثم

سقطت دموعها الحارة وقالت كان يشبه أبي تماماً، وجلست القرفصاء ومدت يديها بحرص ناحية أكتافه وتسمر بؤبؤ عينيها تجاه وجهه، ثم مالت فقبلت جبهته. ثم فجأة صرخت وأخذت تركل جانبه بقدميها، وقالت لست أبي لم يكن لي أبٌ. ومستها لوثة حتى سقطت مغشياً عليها واختلطت جدائل شعرها بالرمال الندية، وأقبلت جدتها وقالت: "والدها تركها وأخذ معه أخواتها وتركها وحيدة مع أمها بعد أن طلقها وذهب لأخرى وتعلل بأنه لا يحب الإناث، وأن الذكور هم أصل الحياة وأن الإناث لا تجلب إلا العار والخزي للقبيلة ". وذات يوم استيقظت الجدة فوجدت كل ديوكها مخنوقة، واعترفت البنت الصغيرة بأنها فعلت ذلك حتى كدنا نصدق أنها ستجن يوماً ما، ثم انحنت فحملت الفتاة وذهبت بها نحو الحقل.

❖ ❖ ❖

القمر الذي شهد هذه الأحداث والحكايات من الأعالي انتصف السماء، وأخذ شكل القرص الفضي المكتمل، وبدأ ينثر ضوءه الفسفوري اللامع على سطح الماء فبدت أكثر بهاءً ورونقاً، وغرد العندليب مرة ثانية وردد الملك لك، لك.

قال أحد الرجال رأيته يصنع خمراً، ويصبه في زجاجات وقوارير صغيرة وكبيرة، يدفنها في باطن الأرض هناك في كهوف الجبال، في المساء يشعل النيران ويغني أغاني بلغةٍ غريبةٍ ويجتمع الرجال والنساء في حضرته يأتون من كل مكان يصافحونه، وعندما يشير إلى أحدهم رجلاً أو امرأةٍ يقترب منه ويصب له في كأسه نبيذاً حلو المذاق يذهب العقل ويخلق النشوة في مسام الجسد ثم بعد ذلك ينطلق الرجال والنساء في مجموعات تجاه الصحراء هناك حيث بني لنفسه معبداً وقال إنه من سلالة الشرفاء وإن اللذة هي رسالته لهذه الدنيا تماماً مثلما كان لكل رسولٍ رسالةُ.. أصوات مريديه تملأ الصحاري ينشدون أناشيد ومزامير

وأحيانا يرتفع صراخهم ونحيبهم لدرجة ترعبنا وأحياناً كنا نشاركهم في نوبتهم الهسترية هذه.

قال إن الحياة متعة، ومتعة العيش في الشراب الذي يقتل الخوف من المجهول، ويعطي الراحة والسكينة للإنسان فاللّحظة يجب أن تُعَاش، وغداً سقط من حسابه.. كان يخرج إلى المزارع القريبة فيجمع الزهور ويراعم النباتات ويمزجها بالعنب بعد عصره، فتنبعث رائحة تعطر المكان وتصل رائحتها إلى السماء.

أعطاها لمن أكرمه من هذه البلدة وكل من جحده دعا عليه، وانتشرت السعادة، ولكن ساءت الأخلاق وضاجع الابن أمه، وقتلت الفتاة زوجة أبيها، فقلنا شرابٌ ملعونٌ واختراعٌ شريرٌ وطلب البعض رأسه فهرب بزجاجته وقواريره.

ومع ذلك ردَّد الشباب أشعاره وجلسوا بجوار معبده طوال الليل، ينتظرون قدومه في الصحراء الواسعة التي تبعد قليلا عن البحيرة.

حبيبته التي حجزها أبوها ذائع الشهرة، بعدما حاولت الهرب معه، فكّت قيودها، وأصبحت تنادي عليه من كل مكان ذهب إليه، مرشدها العقد ذو السبع نُجمات التي صنعها لها هذا الغريب وعندما ماتت صعدت السبع نجماتٍ إلى السماء صانعة مجرة أطلقنا عليها "كرونا" وطلب منّا ان ننظر إلى السماء فرأينا مالا عينٌ رأت، ضوءا" خطف أبصارنا حتى غشينا النُّعاس.

أتى رجلٌ من رجال الشرطة وقال: أنا حارس القصر لقد مرَّ بي هذا الرَّاقد أمامكم، فتساءل أحد الرّجال أيّ قصر تقصد ؟ ثم تساءلوا جميعاً، فأخذ يشرح لهم قائلاً لم يكن القصر قصراً ولكن معبد للإله دينيسيوس العظيم، وعندما دخل كانت الأفعى والشمس المجنحة تعتلى البوابة الحجرية العملاقة، وكان هناك حارس أسمر اللون يبدو أنه هاجر من النوبة إلى الفيوم عندما غرقت المعابد هناك عند بناء السد الكبير الذي جلب الجفاف والسّنوات العجاف لمدينته منذ بنائها. قال الحارس إنّه أتى إلى هنا وفوق رأسه قبعةٌ، اعتقدنا في البداية أنّه أجنبي، يرتدى سترة بنية

اللون تحته افرول أسود وسروالٌ بنفس اللون، لهجته غريبة وعيونه أغرب، عندما تنظر إليهما، لا تمتلك إلا أن تحادثه أو تحبه، دخل المعبد وكأنه يعرفه تماماً. ثم ذهب إلى الطابق الثاني وكنت اتبعه، وكأني لم أدخل هذا المكان مطلقاً.. كانت الظهيرة، وتعامدت الشمس على الخزانة القديمة التي تتفرع منها ممراتٌ وانفاقٌ ثم نظر وقال "خسارةً" لم تكن هناك عملاتُ ذهبٍ ولا أوراقٌ بردي تدل على الكنز، ثم طلع إلى قمة المعبد ونظر إلى الشمس كثيراً، ثم نظر إلى الصحراء الواسعة، وقال هناك "بيت الغجر" فضحكت. سلمٌ عليّ وأجزل العطاء ووعدني بزيارة مرةً ثانية وأهداني القبعة، ثم اختفي، وَبَعُدَ تماماً عن المعبد.



قال رجلٌ ذو لحية بيضاء تصل إلى بروز سُرّته، ويرتدى جلباباً أسود وعيناه صغيرتان ثاقبتان وتتحرك شفتاه بصعوبة: رأيته ضحى يومٍ، وقد تجمع حوله اناسٌ كثيرون، وكان هناك ملكٌ يرتدى فوق رأسه تاجاً

ووراءه وزيره، وأخذ السَّحرة يعرضون مهاراتهم، فمنهم من يجعل السيف يرقص بين الحاضرين ومنهم من يجعل الفيل يحلّق في الهواء، وغيرها من الحيل، أما هو هذا الرّاقد بينكم فأخرج من جيبه كتاباً وجعل يقرأ مصيرَ كلٍّ فردٍ من هؤلاء السَّحرة ثم فعل بعصاه الأعاجيب بينهم، فانحنوا له جميعاً. أما الملك فاستشاط غيظاً، وأمر بصلبهم على جذوع الأشجار، ثم قال للملك احكم بالعدل في ملكك، أما هو ففر منهم، ثم أخرج العجوز من جيبه ضفدعةً وجرادة، ثم أخذ يبكي، وقال:أنتظره حتى اليوم لكي يزيل أثر اللعنة من عيني. ولم يصدق أنَّ هذا الراقد قد مات وقال: سيقوم ويُرفع يوماً ما من جبل الزينة.

أما المرأةُ البدوية التي ترتدي خلخالاً من الفضّة الخالصة وترن حلقاته عندما تتبختر بين الصَّيادين فقد ضربت على دُفها، ثم بدأت تُنشِد وهي تحجل بينهم وتميل على الجثة قائلة:

كنت قريبها يا خيّ بلدك بعيدة

- كنت قربها، وأنا كنت أجيب لك يا الحبيب

مُهْرَة بدويّة، وشال كشمير

وعندما هللّ الحاضرون استمرت تقول:

طوّح الخرزانة عريس يا عايق

طوّح الخرزانة

صدر العروس، حرملة بحرية

يمشي عليها الخيل والخيالة

عريس يا عايق

قال أحد الصيّادين: التي تُغنّي بينكم هي التي ألقت به في الماء، هي قاتلته، ويجب أن يُطبق عليها العقاب فوقفت بينهم بشجاعة وقالت: نعم أردت أن أقطع عنقه، لأنه قهرني بطُهره، ورأيت حجم الظلام بداخلي عندما نظرت في مقلتيه.

قابلته هنا على هذا الشاطئ، وابتسم لي، وقال إن حواء هي هدية الرَّب لآدم، وهي شجرة الأرض المثمرة، عندما أكلت التفاحة لم يَحرِمها اللهُ شيئاً وعوَّضها العذابَ الذي رأته أثناء السقوط بثمرات كثيرة هي إنجاب الأطفال،كنت قد أجهضت أبناء كثيرين وقتلتهم بيدي ودفنت أجنتهم تحت هذه الرمال، وعندما قال لي ذلك اقسمت ألاّ اقتل أجنتي مرةً ثانية، ولكن جاءني الجنون أن اقتله لأنه عرف سري..أخذته في قارب وأبحرنا في البحيرة وهناك قرب الجزيرة الرملية نام على ذراعي فأسدلت شعري البني على جبينه ودثرته بردائي الأحمر فشعرت لحظتها إنه ابني، كدت أقتله بالمجداف، ولكن لم أستطع فقد كان يشبه الأنبياء وهو نائم فنفضته عنى، وألقيت به في مياه البحيرة المالحة والعميقة.

قالت هذا الكلام ثم رحلت بعيداً جداً ولم يرها أحدٌ.

❖ ❖ ❖

جاء يجر حماره، وعندما شاهدوه وقروه برغم بشاعة هيئته، وخطف البرق أبصارهم، واهتزت الجبال من خطوات أقدامه، كان عملاقاً مثل نخلةٍ عاليةٍ خاويةٍ الأفرع، على جسده كان الشّعرُ كثيفاً وغزيراً حتى خُيِّل لهم أنه قردٌ من اليهود الذين مُسِخُوا بتطاولهم على الله، وكلّما اقتربوا منه قَصُرَت قامته حتى صار طوله شبراً.

قال بعض الحاضرين هذا هو المُخلّص، هذا الذي سيحقّق الرّفاهية والسّعادة لنا بعد البؤسِ والشقاء الذي عشناه على مرّ السنين على يد هؤلاء الخونة والطغاة، وما إن سمع هذه الكلمات حتى بسط كفيه فخرج القمح من بين أصابعه فهرولت النساء يجمعن القمح في كيلات، ثم أخذت كلُّ واحدةٍ منهن طحيناً، وأخذت تخبز خُبزاً طَازِجَاً وتقدمه للأطفال والشيوخ، وعبّقت رائحة الخمير والخبز المكان وأعطى الرجالَ عنباً له طعمُ النبيذِ المخمورِ، وقالت النسوة هذا الذي انتظرناه منذ زمنٍ طويلٍ، لقد تعبنا من عيشتنا تلك وهذا الذي سيحقّق السلام.

الآخرون الذين لم ينبهروا به قالوا: هكذا دائماً الفقراءُ يجرون وراء المعجزات الباطلة، ليس هذا مخلّصُكم، هذا ليس الحقَّ.

استشاط القادم غضباً، وكشف عن وجهه، فبان عوره وبياض عينيه، فالذين خافوا منه اتبعوه وصدقوه عندما قال " عندي الوفرة، وسأحيى الميِّت امامكم ".

قالت إحدى النسوة: لماذا أتيت الآن ؟ ما زال الوقت مبكراً، فنحن قرية نعبد الله، ومازلنا نخشاه ونطمع في رحمته إذا كانت هي النهاية فلتكن ولكننا نريد الحقيقة، إذ كان هذا هو الذي سيحيي الموتى، فأين الذي كلّم الله في المهد ؟ وأين الناقةُ ؟

الذي تجرَّأ أن يتحدث إلى القادم وسأله من أين جاء وإلى أين يذهب، رد عليه بصوتٍ جهوريٍ إنه أتى عندما حل الفساد في الأرض، وإنه من سلالةٍ ناريَّةٍ وأنَّ من سيدقّق النظر في جبهته سيقرأ رسالته، وقال موطنى

هو الشام وليبيا، ومنعتي هي مكة والمدينة، وأبيت كلَّ يومٍ أحلم بالبيت العتيق، ولكنّي ممنوع منه إلى الأبد.

جلس ووضع يده على الجثة فدبّت في الجثة الحياة، وكادت تبتسم وانبهر بعض الناس بالحدثً... قالت إحدى النساء إنَّ الذين سجدوا له لن يعيشوا في قريتنا بعد اليوم فإنهم يهود قارون الذين كفروا وتمنوا ثروته، يجب أن يخرجوا منها.

وصرخ طفلٌ من بين الحضور وقال ببطء وكأنه يقرأ لوح المطالعة "ك ف ر."

فهاجت عصبة القادم الذين ينادونه بالمخّلص وكادوا يقتلون الطفل، وسمع من بعيد دبيب صوتِ أقدامِ جنود يقدر عددهم بالآلاف، وهتف واحدُ من بعيدٍ إنَّ مياه البحيرة قد جفّت، وصرخ عجوزٌ، وقال يأجوج ومأجوج هدموا السد، وحاق بنا الهلاك.

ـ في السماء البعيدة رأوه يفرد ذراعيه ويتهاوى من تحته أخشاب هيكل على هيئة صليب وتتحول الأشواك إلى زهور نرجس ويختفي الذين سجدوا للمُخَلّص وراء البيوت والجدران والصخور، وهبط ومعه النور فذاب المخلص كما يذوب المِلحُ في الماء. واختلطت ماؤه بمياه البحيرة التي تحولت إلى تماسيحَ كبيرةٍ جائعةٍ تبتلع أصحاب المُخَلّص واتباعه.



بعد فترةٍ من الزمن لا تحسبه عقارب الزمنِ الأرضي، وقفت المرأة التي سقط منها شالها الأسود وهي تقترب من الجثة، وقد مالت برأسها تجاه البشر الواقفين حولها وقالت:

ماذا يهمُّكم من الذي يرقد في سلام بينكم ؟ أهو آدم قبل أن تبعث فيه الروح ؟ أم هو نهاية الإنسانية جمعاء ؟

كانت الحياة جميلة ولقد عشتها معه. نعم قاسينا الكثير، ولكن متعة رؤية بزوغ الشمس من وراء الجبال وسطوع القمر فوق سطح

البحيرة أقوى من أي ألمٍ في العالم. لو كانت النهاية الآن، وشملتنا الطّامة الكبرى فلن نندم على ما كنا فيه، ولن نفرح بالراحة الأبدية، لأن الحياة هي الصراع وهي القسوة، وبدونهما لم يبنَ صرح ولم تقم حضاراتٌ.

مل الناس من حوارها، وظنوها ممسوسةً، ورحل الكبار والصغار وبقيت الجثة وحيدة وبجوارها السيدة التي تتوشح السواد.



قال العمدة لزوجته: مجنونة وتضيعي وقتك في الحواديت، وتنفقين أموالنا علي الدفاتر والصحف، وتريدين بناء مدارس لهؤلاء الفقراء أبناء البحر والرمل - حياتهم ألواح الخشب وطموحهم شبكة مملوءة بالأسماك. الغريب سينتهي غريب والموتي سيبعثون وأن لم تكفي عن ملاحقة حكاياته فلن تعيشي معي تحت سقف منزلي. خافت الزوجة

وعرفت مصيرها ولكنها تمنت أن ترقد تماماً مثل هذا الغريب علي هذه البقعة الساحرة وتخلدها الحكايات.



الذين صبروا على رؤية الجثة وسماع الأحداث طوال هذه الفترة اقسموا ملء أيمانهم أن القمر قد هبط من هناك وانشق ونزلت منه أميرةٌ جميلةٌ ترتدى البياض وتجر وراءها شعرها الطويل حتى كادت تسقط مراتٍ ومرات، وأنها حملت الجثة بين ذراعيها وصعدت بها نحو السموات العليا وهي تذرف دموعاً ما لبثت أن نمت في موضعها أشجار النخيل والزيتون.

وفى اليوم التالي عادت القوارب تتهادى على مياه البحيرة، وأخذ الصيادين يرمون شباكهم وهرج الأطفال ومرجوا في الحقول، وعلا صوت الباعة، وامتلأت القرية بالأغراب، وغاب القمر شهراً كاملاً بدون بزوغ.

منذ ذلك الوقت وأهالي قرية شكشوك وبخاصةٍ الصيادون يؤكدون أنهم يلمحون فتاة جميلة، فارعة الطول، مُحمَّرة الوجه وبيضاء الجبين، وعيونها بلون الخضرة النضرة، رشيقة الطَّلعة وشامخة الرأس، تمشي ليلاً عند سور البحيرة تنظر للماء، وتهرول تجاه الشاطئ، تغنّي بصوت شجيّ ورائع، وتحملق أحياناً في السّائرين، ولكنها تخشى أن تتحدث إليهم، تبقى على ذلك حتى انبثاق الفجر، ومع طلوع ضوء النهار لم يكن يرى طيفَها أحدٌ.

## المؤلـف

- حاصل علـى درجـة الـدكتوراه فـي الأدب الأيرلـنـدي المعاصـر المكتـوب باللغة الإنجليزية.

- حاصل على درجة الماجستير في الشعر الإنجليزي المعاصر.

- يعمل مدرساً للأدب الإنجليزي بجامعة عين شمس.

- صدرت لـه مجموعـة قصص قصيرة بعنوان "البيـانو الأسـود" عـام ١٩٩٦ من دار الثقافة الجديدة بالقاهرة.

- صدرت رواية "سانت تيريزا" دار شرقيات طبعة أولى ٢٠٠١.
طبعة خاصة عام ٢٠٠٨.

- صدرت رواية "جبل الزينة" طبعة أولى عـام ٢٠٠٥ مـن دار ميريت للنشر، طبعة ثانية من مؤسسة "الدار للنشر" ٢٠٠٧، طبعة خاصة عام ٢٠٠٨.

- صدرت روايـة "النـوم مـع الغربـاء" طبعـة أولى عـام ٢٠٠٥ مـن دار ميريت، طبعة خاصة عام ٢٠٠٨.



# جبل الزينة

علي جدار حجرة العمدة كانت لوحة من القماش عليها صورة بألوان طبيعية لطفلة لاتتعدي الرابعة من العمر بيدها شمعة مضيئة رسمها لها فنان قبطي متخصص في وجوه الموتى التى توضع على الأكفان، أصر الأب أن يطلبه في وقت متأخر ويرسم الطفلة علي فراش الموت وبرغم جلوس ملاك الموت في بؤبؤ عينيها إلا أن الفنان استطاع أن يرسم هذا البورتريه العبقري في دقائق قليلة هي وقت احتضار الطفلة، رسم منها قطعتين: واحدة غطى بها كفنها، والأخرى علقت علي الحائط لتظل حاضرة في المكان ولا تغادره أبداً برغم اعتراض حسام علي تعليق صور الموتى علي جدران بيوت الأحياء.






تصميم الغلاف

عمرو الكفراوي